

"وسياتي من بعدكم زمان: قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه" ٢٣ شوال ١٤٣٤

روى البخاريُّ في «الأدب المفرد» وصححه الألباني في «الصحيحة» عن ابن مسعودٍ قال: إنكم في زمانٍ: كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطباؤه، قليلٌ سُؤاله، كثيرٌ مُعطوه، العملُ فيه قائدٌ للهوى. وسياتي من بعدكم زمان: قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه، كثيرٌ سُؤاله، قليلٌ مُعطوه، الهوى فيه قائدٌ للعمل. اعلّموا أنّ حُسْنَ الهدْيِ - في آخر الزّمان - خيرٌ من بعضِ العمل.

يُخبرُ ابنُ مسعودٍ بالفرقِ بين الزّمانِ الأوّلِ والزّمانِ الآخِرِ. فالزّمانِ الأوّل: زمانِ الخيرِ والعافية، قال فيه رسولُ الله ﷺ: «خيرُ النَّاسِ قرني ثمّ الذين يَلُونَهُمْ ثمّ الذين يَلُونَهُمْ»، وقال: «إنّ أمتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أوّلها، وسيُصيبُ آخرها بلاءٌ وأمورٌ تُنكرونها»،

هذا الزمانُ الآخرُ الذي تتغيرُ فيه الأمور وتظهر فيه الأهواءُ
المذمومة، وتَشيع أسباب الفرقة والاختلاف.

فعلامةُ الخيرية في ذلك الزمان: أن العلماءَ الفقهاء فيه كثرةٌ غالبيةٌ،
يَرجعُ الناسُ إليهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنتُمْ
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

معالمٌ للمسلم عند الفتن واجتهد في إزالتها:

لا تخش من فشو البدعة:

نقل القاضي عياض في " ترتيب المدارك وتنوير المسالك " : سأل
رجل الإمام سحنون المالكي رحمه الله: البدعة فاشية، وأهلها
أعزاء؟

فقال سحنون: أما علمت أن الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها.

احذر من التلّون في الدين:

ذكر ابنُ بطة في الإبانة : أن أبا مسعودٍ دخل على حذيفةَ فقال: اعهدْ إليّ، فقالَ له: أَلَمْ يَأْتِكَ اليقينُ؟

قال: بلى وَعِزَّةَ رَبِّي، قال: فاعلمْ أَنَّ الضَّلَاةَ حَقُّ الضَّلَاةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ وَأَنْ تُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ وَإِيَّاكَ وَالتَّلُّونِ فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ وَاحِدٌ.

وأخرج الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: إذا أحبَّ أحدكم أن يعلمَ أصابتهُ الفتنةُ أم لا ؟ فلينظر؛ فإن كان رأى حلالاً كان يراه حراماً فقد أصابتهُ الفتنة! وإن كان يرى حراماً كان يراه حلالاً فقد أصابتهُ»!!

وعن محمد بن سيرين قال: قال عدي بن حاتم : إِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا
بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَعْرِفُوا مَا كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ، وَتُنْكِرُوا مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ. هذه
الآثار كلها ذكرها ابن بطة في الإبانة.

وذكر أبو نعيم في " الحلية " عن محمد بن كعب القرظي أنه سُئِلَ : ما
علامةُ الخذلان ؟

قال: أن يستقبح الرجل ما كان يستحسنُ ويستحسن ما كان قبيحاً.
وقال الإمام الآجريُّ: في " الشريعة " : قد ذكرتُ هذا الباب في
" كتابِ الفتن " في أحاديث كثيرة. وقد ذكرتُ هاهنا طرفاً منها،
ليكونَ المؤمنُ العاقلُ يحتاطُ لدينه، فإنَّ الفتنَ على وجوه كثيرة،
وقد مضى منها فتنٌ عظيمةٌ، نجا منها أقوامٌ، وهلكَ فيها أقوامٌ باتباعِ
الهوى، وإيثارهم للدنيا، فمن أراد اللهُ به خيراً فتح له بابَ الدعاءِ،
والتجأ إلى مولاه الكريم، وخافَ على دينه، وحفظَ لسانه، وعرفَ
زمانه، ولزِمَ المحجَّةَ الواضحةَ السوادَ الأعظم، ولم يتلون في دينه،

وَعَبَدَ رَبَّهُ تَعَالَى، فَتَرَكَ الْخَوْضَ فِي الْفِتْنَةِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ يَفْتَضِحُ عِنْدَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُحَذِّرٌ أُمَّتَهُ الْفِتْنَةَ؟ قَالَ: "يَصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا، وَيَمْسِي مُؤْمِنًا وَيَصْبِحُ كَافِرًا".

قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي " الْفُنُونِ " : مَنْ صَدَرَ اعْتِقَادُهُ عَنْ بُرْهَانٍ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ تَلَوُّنٌ يُرَاعِي بِهِ أَحْوَالَ الرَّجَالِ.

احذر هؤلاء:

أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي " سُنَنِهِ " وَاللَّالِكَائِيُّ فِي " شَرْحِ أَصُولِ الْإِعْتِقَادِ "، وَعَبَدَ اللَّهُ بِنِ أَحْمَدَ فِي " السَّنَةِ "، وَابْنُ بَطَّةَ فِي " الْإِبَانَةِ " : عَنْ أَبِي قَلَابَةَ قَالَ: " لَا تَجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَلَا تَجَادَلُوهُمْ ؛ فَإِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ يَغْمَسُواكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ أَوْ يَلْبَسُوا عَلَيْكُمْ مَا تَعْرِفُونَ.

وَنَقَلَ ابْنُ بَطَّةَ فِي " الْإِبَانَةِ " عَنْ مَفْضَلِ بْنِ مَهْلَهْلِ قَالَ: لَوْ كَانَ صَاحِبُ الْبِدْعَةِ إِذَا جَلَسَتْ إِلَيْهِ يَحْدُثُكَ بِبِدْعَتِهِ حَذَرْتَهُ وَفَرَرْتَ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ

يحدثك بأحاديث السنّة في بُدو مجلسه ثم يُدخِل عليك بدعته
فلعلها تلزم قلبك فمتى تخرج من قلبك؟ والآثار في ذلك كثيرةٌ
جداً.

بمن نقتدي في فهم الشريعة: الحسن البصري إمام التابعين في البصرة أم
عبد الله بن سبأ اليهودي؟!

ذكر الطبري في تاريخه: أن عبد الله بن سبأ اليهودي كان يقول :
ابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي
عن المنكر ، تستميلوا الناس .

وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّبِيعِيُّ: لَمَّا كَانَتْ فِتْنَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ حِينَمَا
خَرَجَ عَلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يُونُسَ انْطَلَقَ عُقْبَةُ بْنُ عَبْدِ الْغَافِرِ، وَأَبُو
الْجَوْزَاءِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ غَالِبٍ فِي نَفَرٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ، فَدَخَلُوا عَلَى
الْحَسَنِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا سَعِيدٍ مَا تَقُولُ فِي قِتَالِ هَذَا الطَّاغِيَةِ الَّذِي
سَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَخَذَ الْمَالَ الْحَرَامَ، وَتَرَكَ الصَّلَاةَ، وَفَعَلَ،

وَفَعَلَ، فَقَالَ الْحَسَنُ: أَرَى أَنْ لَا تُقَاتِلُوهُ، فَإِنَّهَا إِنْ تَكُنْ عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ
فَمَا أَنْتُمْ بِرَأْدِي عُقُوبَةَ اللَّهِ بِأَسْيَافِكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بَلَاءً فَاصْبِرُوا حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ: فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ
يَقُولُونَ: نُطِيعُ هَذَا الْعَلِجَ، قَالَ: وَخَرَجُوا مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَقَتِلُوا
جَمِيعًا، قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو الْمُعَدَّلِ، قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى عُقْبَةَ بْنِ
عَبْدِ الْغَافِرِ وَهُوَ صَرِيحٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْمُعَدَّلِ، لَا دُنْيَا، وَلَا آخِرَةَ.

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّ الْحَجَّاجَ عَذَابُ اللَّهِ فَلَا
تَدْفَعُوا عَذَابَ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِالْأَسْتِكَانَةِ وَالتَّضَرُّعِ، فَإِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاكُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا
يَتَضَرَّعُونَ).

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ يَزِيدِ الْعَبْدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ
الْحَسَنَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَأَتَاهُ رَهْطٌ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَلْزَمُوا بُيُوتَهُمْ،
وَيُغْلِقُوا أَبْوَابَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا ابْتُلُوا مِنْ قَبْلِ

سُلْطَانِهِمْ صَبَرُوا، مَا لَبِثُوا أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَفْرَعُونَ إِلَى
السَّيْفِ فَيُوكَلُونَ إِلَيْهِ، وَوَاللَّهِ مَا جَاؤُوا بِيَوْمٍ خَيْرٍ قَطُّ، ثُمَّ تَلَا: ()
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا
كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).

وَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ خَرَجَ خَارِجِي بِالْخُرَيْبَةِ، فَقَالَ: الْمِسْكِينُ رَأَى
مُنْكَرًا فَأَنْكَرَهُ، فَوَقَعَ فِيمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ.

وَقَالَ: اعْلَمْ - عَافَاكَ اللَّهُ - أَنَّ جَوْرَ الْمُلُوكِ نِقْمَةٌ مِنْ نِقَمِ اللَّهِ تَعَالَى،
وَنِقْمُ اللَّهِ لَا تُلَاقَى بِالسَّيُوفِ، وَإِنَّمَا تُتَّقَى، وَتُسْتَدْفَعُ بِالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ،
وَالإِنَابَةِ، وَالإِقْلَاعِ عَنِ الذُّنُوبِ، إِنَّ نِقْمَ اللَّهِ مَتَى لُقِيتَ بِالسَّيْفِ
كَانَتْ أَقْطَع.

وَسَمِعَ الْحَسَنُ رَجُلًا يَدْعُو عَلَى الْحَجَّاجِ فَقَالَ لَهُ: لَا تَفْعَلْ -
رَحِمَكَ اللَّهُ - إِنَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أُتَيْتُمْ، إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ عَزَلَ الْحَجَّاجُ،
أَوْ مَاتَ: أَنْ تَلِيكُمْ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا كَتَبَ إِلَى

بَعْضِ الصَّالِحِينَ يَشْكُو إِلَيْهِ جَوْرَ الْعُمَّالِ أَيْ الْأُمَرَاءِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: يَا
أَخِي، وَصَلَنِي كِتَابُكَ، تَذَكَّرُ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ جَوْرِ الْعُمَّالِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ
يَنْبَغِي لِمَنْ عَمِلَ بِالْمَعْصِيَةِ أَنْ يُنْكَرَ الْعُقُوبَةَ، وَمَا أَظُنُّ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ
إِلَّا مِنْ شُؤْمِ الذُّنُوبِ، وَالسَّلَامُ.

وَقَالَ زُرَيْكُ بْنُ أَبِي زُرَيْكٍ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ إِذَا
أَقْبَلَتْ عَرَفَهَا كُلُّ عَالِمٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَرَفَهَا كُلُّ جَاهِلٍ.

وليس الحسن وحده. بل هذه مقالاتٌ أجمع عليها السلف.

فَقَالَ الْإِمَامُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: جَوْرُ سِتِّينَ سَنَةً، خَيْرٌ مِنْ
هَرَجِ سَاعَةٍ، فَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَ السُّلْطَانِ إِلَّا جَاهِلٌ مَغْرُورٌ، أَوْ فَاسِقٌ
يَتَمَنَّى كُلَّ مَحْدُورٍ، فَحَقِيقٌ عَلَى كُلِّ رَعِيَّةٍ أَنْ تَرُغِبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
فِي إِصْلَاحِ السُّلْطَانِ، وَأَنْ تَبْذُلَ لَهُ نُصْحَهَا أَوْ تَخْصُهُ بِصَالِحِ دُعَائِهَا،
فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ صَلَاحَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَفِي فَسَادِهِ فَسَادُ الْعِبَادِ
وَالْبِلَادِ، وَكَانَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: إِنْ اسْتَقَامَتْ لَكُمْ أُمُورُ السُّلْطَانِ

فَاكْثِرُوا حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَاشْكُرُوهُ، وَإِنْ جَاءَكُمْ مِنْهُ مَا تَكْرَهُونَ،
وَجْهوهُ إِلَى مَا تَسْتَوْجِبُونَهُ مِنْهُ بِذُنُوبِكُمْ، وَتَسْتَحِقُّونَهُ بِآثَامِكُمْ،
فَأَقِيمُوا عُذْرَ السُّلْطَانِ بِانْتِشَارِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ، وَكَثْرَةِ مَا يُكَابِدُهُ مِنْ
ضَبْطِ جَوَانِبِ الْمَمْلَكَةِ أَوْ اسْتِئْلَافِ الْأَعْدَاءِ، وَرِضَاءِ الْأَوْلِيَاءِ، وَقِلَّةِ
النَّاصِحِ، وَكَثْرَةِ الْمُدَلِّسِ، وَالْفَاضِحِ. ا.هـ. وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ، وَالْفِتْنُ،
وَاضْطِرَابُ الْأُمُورِ. وَغَيْرُهُ كَثِيرٌ.

احذر قطاع الطريق إلى الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى": "تجب عقوبة
كل من عرف حالهم ولم يعاون

على القيام عليهم فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات ؛ لأنهم
أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك
والأمراء وهم يسعون في الأرض فسادا ويصدون عن سبيل الله .

فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم
ويترك دينهم كقطاع الطريق .

وقال تلميذه ابن القيم في "المدارج": من أحالك على غير أخبرنا و
حدثنا فقد أحالك: إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي
نفسي فليس بعد القرآن و أخبرنا و حدثنا إلا شبهات المتكلمين
وآراء المنحرفين و خيالات المتصوفين و قياس المتفلسفين و من
فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ولا دليل إلى الله والجنة سوى
الكتاب والسنة وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من
طرق الجحيم والشيطان الرجيم.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

ألدُّ وأشهى من غويِّ أعاشرهُ

إِذَا لَمْ أَجِدْ خِلاَّ تَقِيًّا فَوَحْدَتِي

أقرُّ لعيشي من جليسٍ أحاذره

وَأَجْلَسَ وَحْدِي لِلْعِبَادَةِ آمَنًا

